قبة الصخرة المشرفة
اجمل الآثار والعمران التى خلدها التاريخ

أ. مجاهد على شراب*

تعتبر قبة الصخرة المشرفة (التى أقامها عبد الملك بن مروان ٧٢ هـ / ٦٩١م فوق "صخرة المعراج" فى ساحة الحرم القدسى الشريف ساحة المسجد الأقصى المبارك) والتى لا زالت تتحدى الأجيال كأقدم نموذج لفن العمارة الإسلامية، تعتبر آية فى الروعة والجلال والدقة والجمال فى الفن العربى الإسلامى، واجمل الأبنية على وجه البسيطة وأروع ما وصل إليه المجهود الإنسانى فى فن العمارة وأجمل الأثر التى خلدها التاريخ .. هذا ما حملته كتابات ومؤلفات المؤرخين المسلمين وغير المسلمين، والرحالة على مدى قرون طويلة، وحتى الآن، بالاعتراف بهذه الحقيقة والإشادة بها.

وقد قيل – منذ القدم – أن الله جل جلاله نظر إلى المسجد الحرام بعين الجلال، ونظر إلى المسجد الأقصى وقبة الصخرة بعين الجمال. كما قيل أن الله تعالى قسم الجمال إلى عشرة أجزاء، منح القدس تسعة منها، ووزع الجزء الباقى – العاشر – على باقى الكرة الأرضية.

وتصفها الموسوعات الفنية، ومنها (موسوعة الفن فى العصر الأموى) بأنها اعظم العمائر الإسلامية فى الفخامة وإبداع الزخرفة وتمتاز ببساطة التصميم وتناسق الأجزاء. وتضيف الموسوعة "ومن آيات الأعجاز فى تصميم بناء قبة الصخرة انه روعى فيه ان يكون فى دائرة دعامات القبة لفت بسيط حتى لا تحجب الأعمدة الواقفة أمام الرائى الأعمدة الأخرى المقابلة لها فى الطرف الآخر"، ولذلك يتسنى لمن يدخل من أى باب من أبوابها أن يرى كل ما فيها من أعمدة وأكتاف، وسواء منها ما كان أمامه تماما أو ما كان فى الجهة المقابلة.

ويضيف أحد الكتاب (ياقوت الحموى) إلى كلام الموسوعة، من ناحية أسلوب تصميم القبة أن "من اعظم محاسنه انه إذا جلس إنسان فى أى موضع منع يرى أن ذلك الموضع هو احسن المواضع واشرحها" ووصفها البروفيسير هارتمان بأنها "نموذج من التناسق والانسجام". وتقول الموسوعة الإسلامية "أن التناسق فى تناسبها وغنى زخارفها وكسوتها يجعل من قبة الصخرة أحد اجمل المبانى فى العالم". ويضيف غوستاف لوبون على ذلك : "أنه اعظم بناء يستوقف النظر ... أن جماله وروعته مما لا يصل إليه خيال الإنسان".

أما فرغسون فيقول : لم اكن أتوقع مطلقاً أن أرى مثل هذه العظمة الساحرة والفتنة الفائقة فى هذا البناء الذى فاق تاج محل وغيره من المقابر الملكية، وأن ما فيه من التناسق والجمال الذى لا نظير له ليفوق كل أثر آخر فى العالم". وكتب الرحالة العربى ابن بطوطة – بعد زيارته لبيت المقدس – يصف قبة الصخرة المشرفة بأنها : اعجب المبانى وأتقنها وأغربها شكلا، قد توفر حظها من المحاسن وأخذت من كل بديعة بطوف، وهى قائمة على نشز فى وسط ساحة المسجد (الأقصى) يصعد إليها فى درج رخام ولها أربعة أبواب الدائر بها مفروش بالرخام أيضا، محكم الصنعة وكذلك داخلها، وفى ظاهرها وباطنها من أنواع

---

* كاتب صحفي فلسطيني ومراسل هيئة الإذاعة والتلفزيون الفلسطينية.

الزواقة ورائق الصنعة ما يعجز الوصف عن وصفه، واكثر ذلك مغشى بالذهب، فهى تتلألأ نوراً وتلمع لمعان البرق يحار بصر متأملها فى محاسنها ويقصر لسان رائيها عن تمثيلها.

ويقول المهندس حسين الشافعى (كبير المهندسين المصريين الذى أشرفوا فى العام ١٩٦٤ على تجديد وترميم مسجد قبة الصخرة) : "أن القبة تحوى على دقة وروعة فى الفن العربى الإسلامى تفوق كل ما فى أهرامات الجيزة وغيرها، ولولا التعصب الأعمى ضد كل ما هو عربى إسلامى، لإعتبرت قبة الصخرة إحدى عجائب الدنيا وغرائبها، وذلك يستلزم تمجيد القدرة والمهارة العربية الإسلامية والتحدث عنها وأوربا المتعصبة لا تريد ذلك" ويضيف على ذلك كرزويل : "أن لقبة الصخرة المشرفة أهمية ممتازة فى تاريخ العمارة الإسلامية فقد بهرت ببهائها ورونقها وفخامتها وسحرها وتناسقها ودقة نسبها، كل من حاول أن يدرسها من العلماء". والمعروف أن كرزويل هو أحد الذين أجروا أهم الدراسات - إضافة إلى مارجريت فان برشم - على قبة الصخرة وزخارفها، وتقول برشم فى وصفها لجمال الفسيفساء فى عمل الزخارف : "ليس من قبيل المبالغة أن نقول بأن هذه المجموعة الزخرفية هى فريدة من نوعها فى العالم، ليس فقط بجمالها، ولكن لان هويتها الأموية تعطيها أهمية أكثر فخامة من أى الآثار التصورية الباقية من العصر الأموى مما وصل إلينا حتى اليوم" . وتضيف : لعل عظمة قبة الصخرة وجمالها هما فى تخطيطها وتصميمها من بساطة وتناسق تجعلها حقا مفخرة العمارة الإسلامية.

وعن فسيفساء البناء والفنانين الذين أنجزوه، تقول مارجريت فان برشم : "من نباهة وأساليب هؤلاء الفنانين انهم تجاوزوا بمهارتهم كل ما تم فى هذا المجال فى الغرب. ان دراسة للفسيفساء والجدران فى العصور الوسطى فى الغرب، تسمح لى أن القى هذا الحكم".

ويتابع د. عفيف بهنسى هذا الرأى فى دراسته (الفن العربى الإسلامى فى بداية تكوينه) فيقول : "تنفيذ هذا الفسيفساء الرائع قد تم من قبل المواطنين أنفسهم من سكان البلاد سواء كانوا من المسلمين أو ممن حافظ على دينه واعتبر ذميا له حصانته ودوره فى بناء المجتمع الجديد" ويوضح (أن أحجار الفسيفساء كانت صناعة محلية أيضا) ويضيف د. بهنسى : أن هذه الكتابة - الفسيفسائية - مع كتابات قرآنية أخرى، تعتبر اقدم ما كتب من خط عربى جميل، ومن أهم خصائص هذا الفن اعتماد المسار الهندسى فى رسم الحروف بالدقة والبراعة التى تسمح بها مادة التنفيذ الفسيفسائى. لقد كان هذا الخط منطلقا للخط الكوفى من جهة وللخط الثلث اللين من جهة أخرى، فنرى هذا الخط محصلة مسبقة لهذين الخطين اللذين تفرعا عنه، كما تفرع عنه أنماط كثيرة من الخطوط.

وكان شيخ الخطاطين العرب المرحوم محمد صيام قد أعرب عن إعجابه البالغ بجمال الكتابة للآيات القرآنية الكريمة على جدران البناء وفى السقف الداخلى للقبة وعن تأثير ذلك على موهبته، (فى مقابلة خاصة مع مجلة "فلسطين الثورة" قبل وفاته، حيث عاش وتوفى فى مدينة القدس نفسها) قائلا : (خذ مثلا "سورة يس" المكتوبة على قبة الصخرة نفسها، أخذت منى وقتا طويلا وأنا أحدق فيها، وفى كل مرة لا امتنع عن النظر إليها، إلا حينما تؤلمنى رقبتى فقط، من طول النظر إلى أعلى).

أما الموسوعة الفلسطينية فقد وصفت القبة - بكل تواضع وشمول فى آن واحد، قائلة : (أن قبة الصخرة فى هندستها وشكلها وزخرفتها كانت ولا تزال من أجمل وأروع المبانى التى أتحف بها العالم وقلما يوجد فى مبانى العالم ما يفوقها أو يضارعها بهاء وروعة وجمالا . فزيادة على زخرفة سقوفها المذهبة وجدرانها الرخامية ونوافذها الزجاجية، فإنها تفتن العين

بالفسيفساء وجمال تأليفها وألوانها التى جاءت كلها على أحسن تناسق وانسجام وبالأشكال المختلفة التى استعملت الأساليب والألوان ودقة الصنع التى بلغت الحد الأعلى من الكمال. كل هذا جعل من قبة الصخرة أثرا فريدا فى تاريخ الفن.

وقد كتب الصحافى البريطانى تيرى كولمان (صحيفة الغارديان البريطانية) مشاهداته وانطباعاته عن زيارته للقدس - فى أواخر ديسمبر / كانون أول عام ١٩٨٥ - يقول عرف إننى غير متأثر كثيراً "بالعهد القديم" (التوراة - الأسفار الخمسة) فالكلام عن أن داود كان فى الخليل، كلها حكايات لا يملك المرء الا أن يبتسم لها ... وبعد بضعة أيام لم اشعر بأى حزن إزاء مشاهدة "حائط المبكى" ، ولكن مسجد عمر [ضى الله عنه - والمقصود مسجد قبة الصخرة المشرفة] المقام بالقرب منه كان أكثر أهمية بالنسبة لى . وتحت القبة الذهبية العظيمة توجد الصخرة وهى الصخرة التى عرج من فوقها النبى محمد [صلى الله عليه وسلم] إلى السماء ولا يستطيع المرء الا ان يحس بالخشوع داخل هذا المبنى المذهل، وأقولها بصراحة : "إننى لم أحس بالخشوع الا فى هذا المكان".!

ووصف العديد من كتب التراث الإسلامى "الصخرة المشرفة" فى فترات تاريخية سابقة، فوصف ابن العربى المعافرى الأندلسى صخرة بيت المقدس فى كتابة " القبس فى شرح موطأ مالك بن انس" بعد أن زار القدس أواخر القرن الخامس الهجرى، وبقى فى القدس طالبا للعلم وعاش فيها ثلاث سنوات يتلقى العلم بمدرسة الشافعية بالمسجد الأقصى، وصف ابن العربى الأندلسى صخرة بيت المقدس قائلاً : "هى من عجائب الله فى أرضه فى وسط المسجد (الأقصى) قد انقطعت من كل جهة لا يمسكها الا الذى يمسك السماء أن تقع على الأرض الا بإذنه فى علاها من جهة الجوف قدم النبى (صلى الله عليه وسلم) وقد مالت من تلك الجهة بهيبته ومن الجهة الأخرى أثر أصابع الملائكة التى أمسكتها إذ مالت. ومن تحتها "الغار" الذى إنفصلت به من كل جهة، عليه باب يفتح للناس والصلاة والإعتكاف والدعاء ... رغبت أن أدخل تحتها ولكنى كنت أقول : "أخاف أن تسقط على بالذنوب، ثم رأيت الظلمة والمجاهرين بالمعاصى يدخلونها ثم يخرجون منها سالمين، فهممت بدخولها ثم قلت : ولعلهم أمهلوا وأعاجل ! ثم عزمت فتوكلت فرأيت العجب العجاب .. تمشى فى حواشيها من كل جهة فتراها منفصلة عن الأرض لا يتصل بها من الأرض شئ وبعض الجهات أبعد من بعض ..".

أما الرحالة البلوي أبو البقاء بن عيسى المغربى الذى زار القدس ووصف الحرم القدسى الشريف والمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرفة بقوله : "وفى وسط هذا الصحن الأخير المرتفع القبة، العظيمة القدر، الكبيرة الخطر، التى كأن محاسن الدنيا مجموعة فيها ومحصورة فى نواحيها، فهى من أعاجب الدهر واحسن ما يرى البصر ويتخيل فى الفكر قبة الصخرة الكريمة .. وهى مصنوعة من قبة مثمنة الحائط والأركان من داخلها وخارجها، مستوية السقف، أعلاها ذهب مضروب فى صنائع عجيبة، وجوانبها كلها من داخلها ملسة بألواح الرخام المنثور الملصق محكما، مخططاً بالخطوط والكحل، تخطيط القدرة الربانية فجاء منها خواتم عجيبة وطوالع مختلفة الصناعة غريبة. ويصف "الصخرة المعلقة" بقوله : وتحت هذه القبة العجيبة، الصخرة الشريفة التى هى كالجبل الراسى والطود العظيم، معلقة وسط الفضاء بين الأرض والسماء لا صعوداً ولا نزولاً، إنما يمسكها الذى يسمك السماء والأرض أن تزول، وفى الطرف القبلى من الصخرة الشريفة أثر قدم النبى (صلى الله عليه وسلم)".

وتحاط الصخرة المشرفة – وفى وقتنا الحالى – بحاجز خشبى من الأبنوس حُفر حفراً فنياً رائعاً. وتحتها "مسجد الغار الشريف" كمكان للصلاة والدعاء فيه، ومدخله من الجهة القبلية وحوائطه من الرخام البديع وأبعاده ٤,٥×٤×٤ متراً. ويقول مجير الدين الحنبلى فى كتابه "الإنس الجليل بتاريخ القدس والخليل" : " والمشهورة عند الناس أن الصخرة معلقة بين السماء والأرض وأنها استمرت على ذلك لسنة خمس وثمانين وأربعمائة من الهجرة، حتى دخلت تحتها (امرأة) حامل، فلم توسطت تحتها خافت فأسقطت حملها، فبنى حولها هذا البناء المستدير".

وتناول المؤرخون والكتاب وعلماء الآثار والفنون وحتى الرحالة والمستشرفين أوصاف بيت المقدس ودرته المكنونة الحرم القدسى الشريف بمسجده الأقصى وقبته المشرفة من كافة الأوجه، وقد اجمعوا على أن قبة الصخرة من اجمل الاوابد الشهيرة فى التاريخ وهى من أجمل الأبنية الموجودة فوق سطح البسيطة. وقد أعتبر كل من وصف قبة الصخرة المشرفة بأنها عبقرية فى البناء وجمال فى تناسق الأبعاد، ففى المعمار بنيت الأركان والأعمدة محروفة، حتى لتظهر أمام الداخل إلى المسجد من أية جهة كل أطراف المكان، فلا يقاطع بصره شئ من الأبنية وهذا يظهر المكان أفسح وأكثر أتساعا مما هو حقيقة. وروعة فى الكساء الداخلى والخارجى ٠٠ وكسيت جدرانه بالرخام الرمادى المعرق، وبالقاشانى، وكسيت الجدران بأبهى واثمن أنواع الرخام الملون، وفسيفساء قطوف بلح دانية، أكاليل أزهار تلتف حولها الأوراق، دوالى عنب ممتدة إلى عالى الأركان أو منتشرة على توشيحات القناطر. أغصان وأوراق نبات تزينها سلاسل ذهبية وصدفية منتشرة على الجدران، وقلائد أزهار ملبسة باللآلئ ٠٠

يقول أبو عبد الله بن أحمد المقدسى فى كتابه "احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم عن قبة الصخرة المشرفة : "إذا بزغت الشمس عليها ٠٠٠ أشرقت وتلألأت المنطقة ٠٠ ورأيت شيئا عجباً ٠٠ ومجمل القول إننى لم أر فى الإسلام ولا سمعت فى الشرق عن مثل هذه القبة".

إنها فعلاً ٠٠ بلغت حد الكمال والبهاء والجلال والجمال والروعة، لا مزيد عليه ٠٠ وأجمل الآثار والعمران التى خلدها التاريخ.

هذه الدراسة جزء صغير من دراسة أشمل وأوسع عن" بيت المقدس"والمسجد الأقصى ستنشر قريبا للكاتب، بعنوان : "القدس..عروس عروبتكم"ضمن مكتبة الأسرة وسيتشرف الكاتب بطلب كتابة تقديم الكتاب من السيدة الفاضلة: سوزان مبارك راعية مكتبة الأسرة ومهرجان القراءة للجميع،وسيتضمن الكتاب مجموعة نادرة من صور القدس والمسجد الأقصى المبارك وقبة الصخرة المشرف

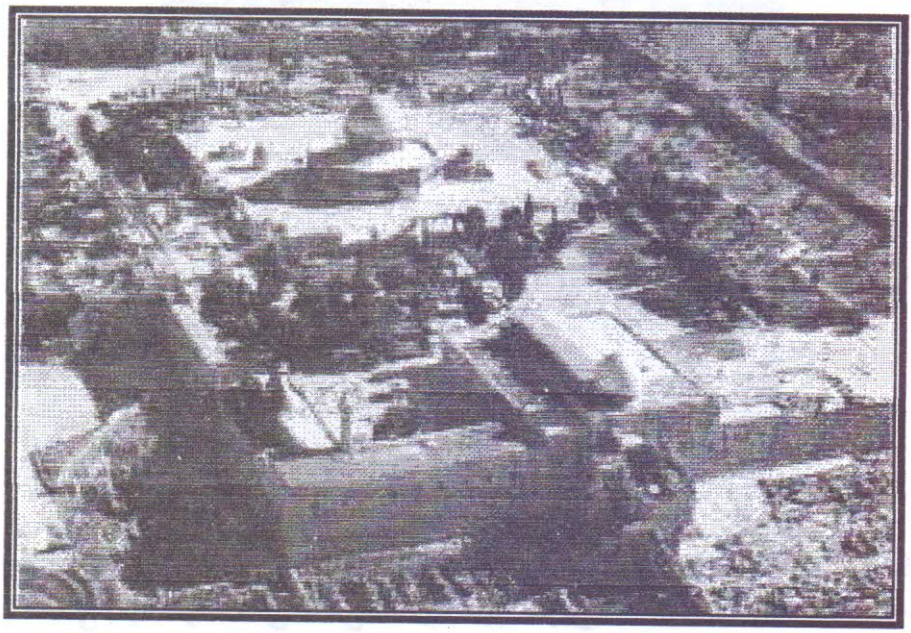

صورة (١)
صورة من الجو للحرم القدسى الشريف (ساحة الأقصى المبارك) ويبدو - جنوب الحرم - المسجد الأقصى المبارك (القبة الفضية) ويبدو - فى الوسط - قبة الصخرة المشرفة (القبة الذهبية) وحولها عدد من الميازين والقباب والأسلة، والى اليسار يبدو حائط البراق (الذى تسميه إسرائيل "حائط المبكى") وهو جزء من الحائط الغربى للحرم وهو ملك إسلامى خالص كما قالت لجان التحقيق الدولية، وقد أزالت إسرائيل "حى المغاربة" بالكامل (المجاور للحائط) من اجل توسعة الساحة المجاورة للحائط.

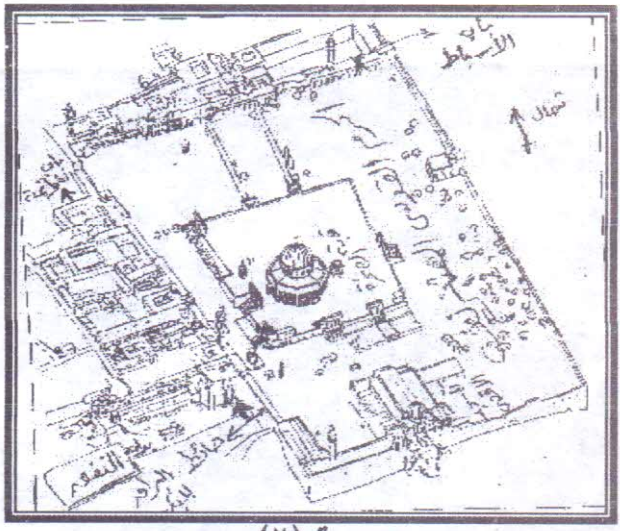

صورة (٢)

صورة تخطيطية لساحة المسجد الأقصى المبارك ويظهر مكـــان النفـق تحت السور الغربى للحرم وتحت الآثار الإسلامية المجاورة لـــه ويمتـد حتى باب القوائمة فى أقصى شمال السور الغربى.

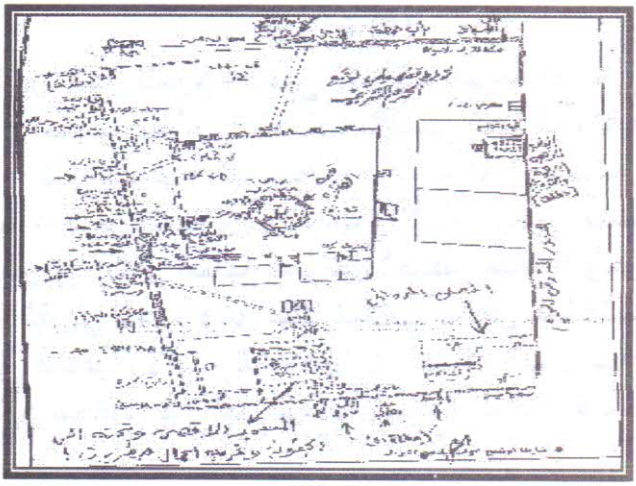

صورة (٣)

رسم تفصيلى للحرم القدسى الشريف (ساحة الأقصى) وبه المسجد الأقصى المبـارك وقبة الصخرة المشرفة وتظهر أبواب الحرم على الحائط الغربـــى وبجوارهـا آثـار ومدارس إسلامية يمر من أسفلها النفق الجديد، كذلك الأبواب على الحائط الشـمالى، وتصل هذه الأبواب المفتوحة فى غرب وشمال الحرم مع أحياء المدينة القديمة داخل سور القدس التاريخى

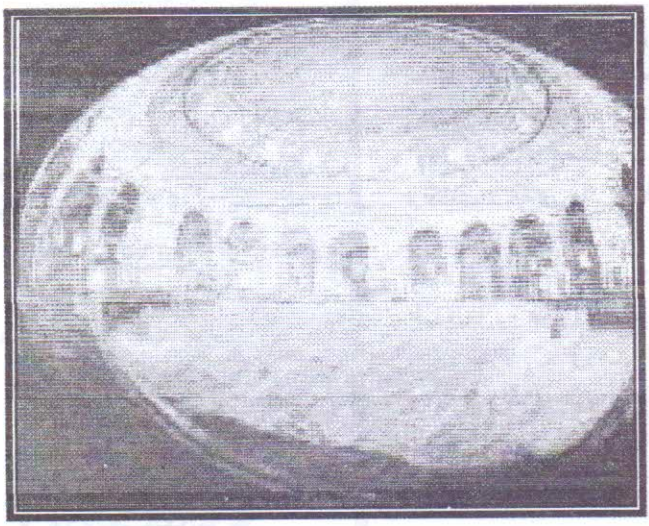

صورة (٤)

قبة الصخرة المشرفة من الداخل فى صورة بعدسة بللورية تظهر جميع محتويات القبة: زخرفة القبة ورقبة القبة ثم دائرة الأعمدة الرخامية والأكتاف التى تحيط بالصخرة المشرفة (التى عرج من عليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم إلى السماء) وفى عمق الصورة يظهر مثمن الأعمدة والأكتاف الأوسط، ثم المثمن الخارجى (جدار البناء).

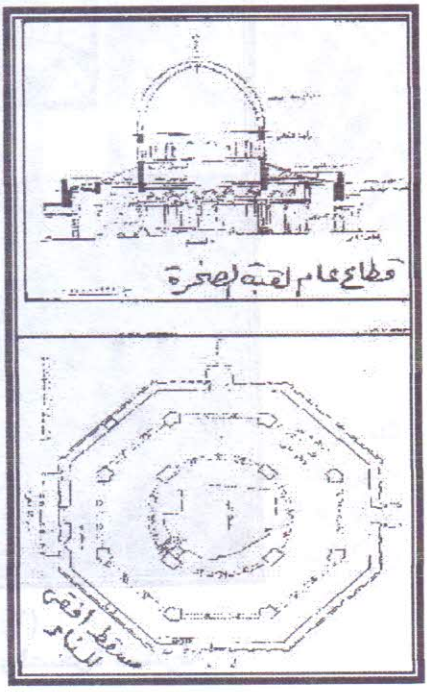

صورة (٥)

الرسم إلى اعلى: قطاع عام لقبة الصخرة يظهر مكوناتها البناء الخارجى والاعمدة الداخلية.

الرسم إلى أسفل: مسقط افقى للبناء ومكوناته (المثمن الخارجى ثم المثمن الأوسط من الأعمدة والأكتاف، ثم دائرة من الأعمدة والأكتاف، ثم الصخرة المشرفة التى ترتفع فوقها القبة).

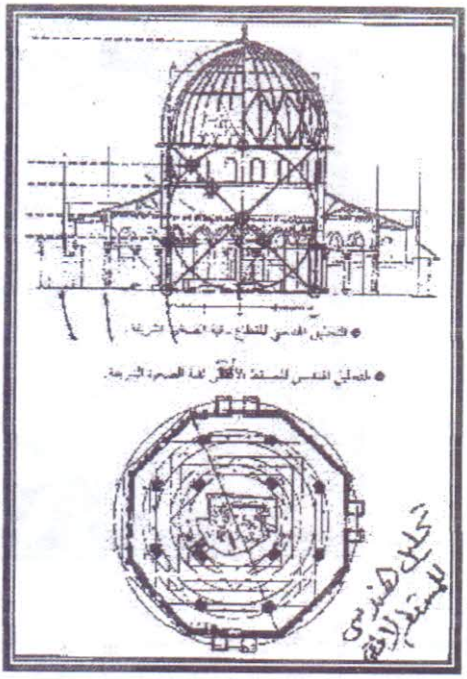

صورة (٦)
تحليل هندسى للقطاع العام لقبة الصخرة المشرفة، وكذلك للمسقط الافقى للبناء ومكوناته من أعمدة وأكتاف، الذى قام به أساتذة الهندسة والعمارة المعاصرين، أثبت عبقرية تصميم بناء قبة الصخرة المشرفة هندسياً ومعمارياً: بلغ حد الاعجاز والاتقان والكمال مع البساطة والروعة والابداع كآية من آيات الجمال فى هذا الصرح المعمارى الاسلامى البسيط.

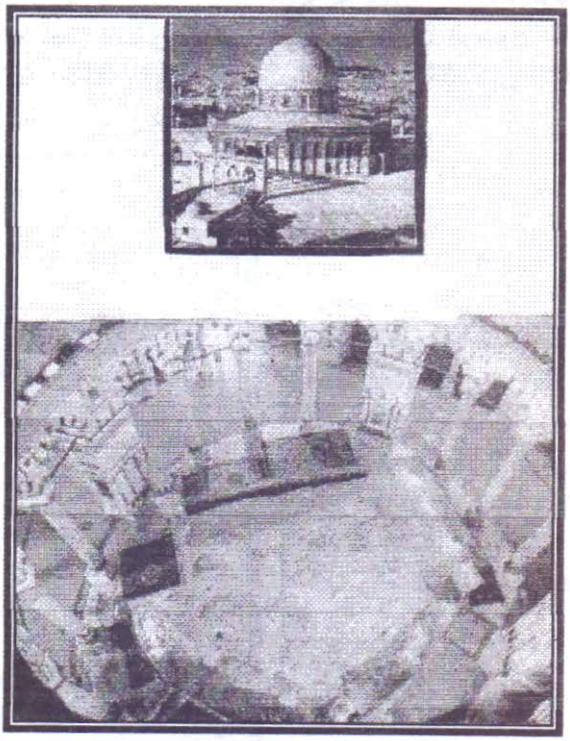

صورة (٧)
قبة الصخرة المشرفة والصخرة المشرفة

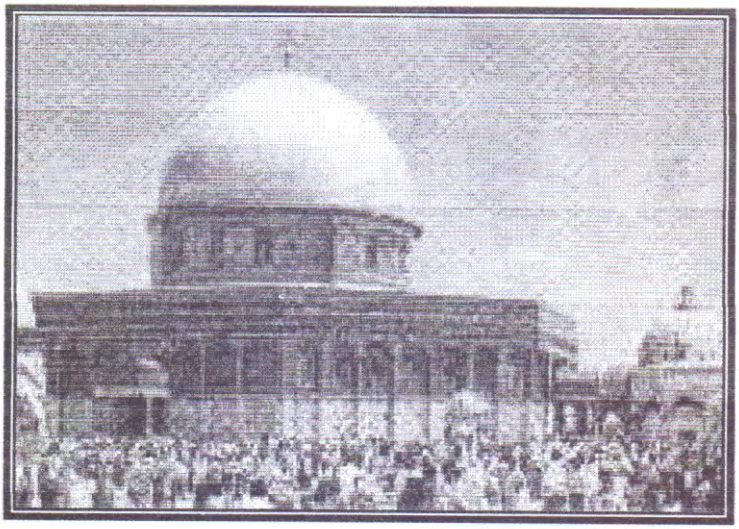

صورة (٨)

قبة الصخرة المشرفة وحولها جماهير غفيرة من المصلين يحمونها يومياً - هى والمسجد الأقصى المبارك - من مخططات وأهداف صهيونية.

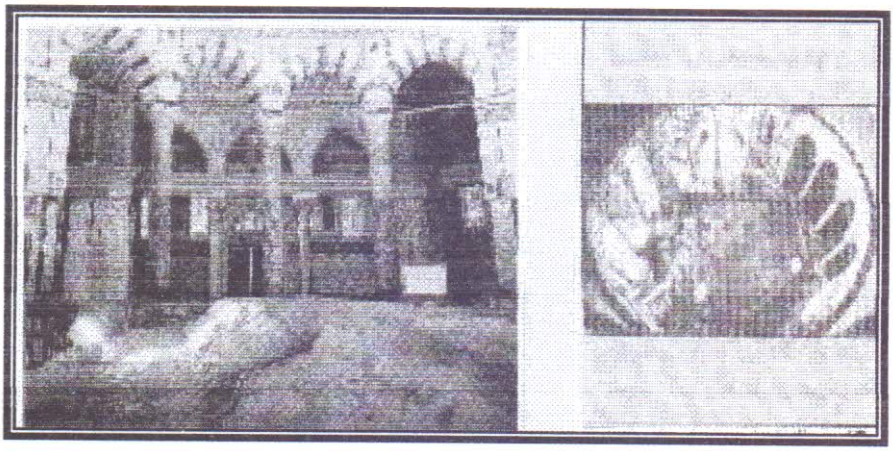

صورة (٩)

الصورة إلى اليمين : الصخرة المشرفة التى عرج من عليها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فى معراجه إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج المباركة.
الصورة إلى اليسار: تظهر حول الصخرة المشرفة دائرة من الأعمدة الرخامية والأكتاف.